

مقدمة

فى مطلع الحديث عن كتاب الله لا بد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التى منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربى مبين، والمنقول عنه (صلوات الله وسلامه عليه) نقلا متواترا بلا أدنى شبهة، بالنص نفسه الذى نجده فى المصاحف التى خطت أو طبعت على مر العصور، ومسجلا فى صدور الحفاظ جيلا بعد جيل، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والأسطوانات المغنطة، والذى نزلت آياته منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة عن أن تدانى كتاب الله فى روعة بيانه، أو فى كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو فى نهجه وصياغته، وتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته على التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية من لدن أبينا آدم (عليه السلام).

أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم

لقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز فى كتاب الله، وكان منهم من رأى ذلك فى جمال بيانه، ودقة نظمه، وكمال بلاغته، أو فى روعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الربوبية فى كل آية من آياته.

ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن فى كمال تشريعه، ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، أو فى استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية، ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام)، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم فى منهجه التربوى الفريد ، وأطره النفسية السامية والعلمية فى الوقت نفسه ، والثابتة على مر الأيام ، أو فى إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة ، أو فى إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفا لأحد من البشر وقت نزول القرآن ، ولا لمئات من السنين بعد ذلك النزول ، ومنهم من رأى إعجاز القرآن فى صموده على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً لكل محاولات التحريف ، التى قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة فى الكفرة والمشركين والملاحدة على مدى تلك القرون العديدة ؛ وذلك لأن الله (تعالى) تعهد بحفظه فحفظ ، قال (تعالى) :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن فى ذلك كله ، وفى غيره مما يقصر الحديث دونه.

نشأة منهج التفسير العلمى لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات) ، وإلى صور من نشأتها ، ومراحل تكونها ، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها ، والسنن الإلهية التى تحكمها ، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة ، وتفهم للحكمة ، وما يستوجبه من إيمان بالله ، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله ، وهو (سبحانه وتعالى) الخالق البارئ المصور الذى أبدع ذلك الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود ، ولا يفيتها حقها وصف.

وقد أحصى الدارسون من هذه الإشارات الكونية فى كتاب الله ما يقدر بحوالى الألف آية صريحة ، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة ، وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية ، وتكرار تأمل المتأملين فى كتاب الله ، وتدبر المتدبرين لآياته - جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر - لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة فى كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهى الذى يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى) :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويدهى أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله يتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم، وبتاسع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال الدراسات الكونية (التي تعرف اليوم باسم «دراسات العلوم البحتة والتطبيقية») من عصر إلى عصر.

وأول من بسط القول فى ذلك الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) فى كتابه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، والذي رفع فيهما شعارات عديدة، منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا، وأن من صور إعجاز القرآن اشتماله على كل شىء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن، حتى علم الهيئة (الفلك)، والنجوم، والطب ... إلى آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالي فى ذلك كثيرون، كان من أشهرهم فى القديم العلامة الشيخ الفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ)، وفى الحديث فضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩ هـ) مما أدى إلى بروز المنهج العلمى فى تفسير القرآن الكريم، والذي يعتمد فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم الحديثة، مع تفاوت فى ذلك من عصر إلى عصر. ويعتبر تفسير الرازى المعنون بـ«مفاتيح الغيب» أول تفسير يفيض فى بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التى كانت معروفة فى زمانه، والتى كان هو على معرفة بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى والمعنون بـ«الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمى؛ إذ يقع فى خمسة وعشرين جزءا كبيرا، حاول فيها الشيخ (رحمه الله) تفسير القرآن الكريم تفسيراً يتجاوب مع روح العصر، وما وصلت إليه المعارف الإنسانية فى مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التى تصاحبها، والسنن الإلهية

التي تحكمها، ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون فى تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوى على كل ما وصل، وما سيصل إليه البشر من معارف.

هذا، وقد نعى الشيخ جوهرى (رحمه الله) على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمى فى القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهيّة فقط بقوله: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب فى علم الفقه، وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه، وقل جدا فى علوم الكائنات التى لا تكاد تخلو منها سورة؟».

ولذا فإننا نجد فى مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين يقول فيه: «يا أمة الإسلام، آيات معدودات فى الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام... هذا زمان رقيه، يا ليت شعرى، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله أبائنا فى علوم الميراث؟» ثم يضيف: «أن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن، بل هى علوم لفظه، وما نكتبها اليوم (يقصد فى تفسيره) علوم معناه...».

ولم يكتف الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل إنه قد استعان فى هذا التفسير - الفريد من نوعه - بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التى ينظمها حساب الجمل المعروف.

وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمى قديما وحديثا، إلا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الإشارات الكونية فى كتاب الله - أى الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد - تبقى بيانا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهى حق مطلق، وصورة من

صور الإعجاز فى كتاب الله - الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وأن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين فى العلم من المتخصصين فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية (كل فى حقل تخصصه)، وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وعصرًا بعد عصر، مصداقًا لقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٨٧-٨٨].

ولقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى وصفه للقرآن الكريم بأنه لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية - فى كل عصر وفى كل جيل - أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربى الأول، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور فى التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التى حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم - كل فيما يخصه - حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز فى كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذى نعيشه، وحتى يتحقق قول الله (تعالى) فى محكم كتابه:

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وانطلاقًا من ذلك الفهم، ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله من أشهرها فى القديم كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية» فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية لمحمد بن أحمد الإسكندراني الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجرى).

ورسالة عبد الله فكرى (وهو من وزراء المعارف السابقين فى مصر فى مطلع القرن العشرين) والتى يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من

نصوص القرآن الكريم فى ذلك، وكتاب «الإسلام والطب الحديث» لعبد العزيز إسماعيل، و«رياض المختار» لأحمد مختار (الغازى)، وكتابا «معجزة القرآن فى وصف الكائنات» و«التفسير العلمى للآيات الكونية» لحنفى أحمد، وكتابا «سنن الله الكونية» و«الإسلام فى عصر العلم» لمحمد أحمد الغمراوى، و«إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض» لمحمد محمود إبراهيم، و«العلوم الطبيعية فى القرآن» ليوסף مروة، وسلسلة كتب كل من محمد جمال الدين الفندى، وعبد الرزاق نوفل فى الموضوع نفسه، وكتاب «أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة» لعبد الغنى الخطيب، و«القرآن والعلم» لأحمد محمود سليمان، و«من إشارات العلوم فى القرآن الكريم» لعبد العزيز سيد الأهل، و«محاولة لفهم عصرى للقرآن» لمصطفى محمود، و«تفسير الآيات الكونية» لعبد الله شحاته، و«الإسلام والعلم التجريبي» ليوסף السويدى، و«القرآن تفسير الكون والحياة» لمحمد العفيفى، و«كتاب الإنجيل والقرآن والعلم» لموريس بوكاى، وكتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد على البار. هذا بالإضافة إلى ما ظهر مؤخرا من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن، وردت مجمعة فى كتب إسلامية متعددة، أو متناثرة فى كثير من التفاسير التى حررت فى النصف الأخير من القرن العشرين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج - بحق أحيانا، وبغير ذلك فى أحيان أخرى كثيرة - للمزيد من النقد والتجريح الذى أسس على أن معجزة القرآن هى فى الأصل معجزة بيانه الذى أدرك أساطين اللغة العربية فيه - ومنذ سماع أولى آياته - أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الإسلام كما بينه نبي الإسلام (صلوات الله وسلامه عليه) وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية فى القرآن عن جادة الطريق؛ إما عن قصور فى فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة على الاجتهاد فى التفسير، أو لكليهما معا.

الدعوة إلى الاجتهاد فى التفسير

هناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد فى تفسير

كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك فى مناهج محددة، منها المنهج اللغوى الذى يهتم بدلالة الألفاظ، وطرائق التعبير وأساليبه، والدراسات النحوية المختلفة، والمنهج البيانى الذى يحرص على بيان مواطن الجمال فى أسلوب القرآن، ودراسة الحس اللغوى فى كلماته، والمنهج الفقهى الذى يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج فى منهج واحد عرف باسم المنهج الموسوعى (أو المنهج الجمعى)، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التى اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة فى الموضوع الواحد فى كل سور القرآن، وتفسير دلالاتها واستنباطها استنادا إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضا، وقد عرف ذلك باسم «المنهج الموضوعى فى التفسير».

من مبررات رفض المنهج العلمى للتفسير

أما المنهج العلمى فى التفسير -والذى يعتمد على تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله (تعالى) حسب اتساع دائرة المعرفة الإنسانية من عصر إلى عصر، وتبعا للطبيعة التراكمية لتلك المعرفة - فقد ظل مرفوضا من غالبية المجتهدين فى التفسير؛ وذلك لأسباب كثيرة منها:

(١) أن الإسرائيليات كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامى عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله؛ وذلك لأن الله (تعالى) قد شاء أن يوكل الناس فى أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر...، ومن هنا جاءت الإشارات الكونية فى القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى، وتظل تلك المعانى تتسع باستمرار فى تكامل لا يعرف التضاد، ومن هنا أيضا لم يقم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتنصيص على المراد منها فى أحاديثه الشريفة، التى تناول بها شرح القرآن الكريم.

ولكن لما كانت النفس البشرية تواقفة دوما إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة،

وخلق الإنسان، ومتى حدث كل ذلك، وكيف تم، وما هي أسبابه؟ وغير ذلك من أسرار الوجود..، فقد تجمع لدى البشرية في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ، اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصاً على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين في مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية في أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة، تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، ودخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) إلى دين الله.. ووصول هذا التراث إلى قيامهم على ترجمته ونقله والإضافة إليه.

حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فضلوا سواء السبيل؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم؛ ولأن هذا التراث كان أغلبه في أيدي اليهود، وهم الذين ائتمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، وأن النقل قد تم عن أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه».

(٢) أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أي كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، بمعنى آخر هو كتاب دين الله الذي أوحى به إلى سائر أنبيائه ورسله، وتعهده الله (تعالى) بحفظه فحفظ، فعلى ذلك لا بد من التأكيد على أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات - على كثرتها - جاءت في أغلب الأحيان مجملة؛ وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكير والتدبر، وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

(٣) أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير، بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما في الغد ما هو سائد اليوم، وبالتأكيد فلا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز؛ لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

(٤) أن القرآن الكريم هو بيان من الله، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز - فى ظنهم - رؤية كلام الله فى إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله (تعالى) بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

(٥) أن العلوم التجريبية تصاغ فى أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية (البحثة والتطبيقية) مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ، وبالبعث والنشور، والحساب، وبالحياة الخالدة فى الدار الآخرة، إما فى الجنة أبداً أو فى النار أبداً.

(٦) أن بعض معطيات العلوم التجريبية قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة فى الكتاب والسنة؛ نظراً لصياغتها من منطلقات مادية بحتة منكراً لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

(٧) أن عدداً من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد تكلفوا فى تحميل الآيات من المعانى ما لا تحمله فى تعسف واضح وتكلف مفتعل على أعناق الكلمات والآيات، وتحميلها من المعانى ما لا تحمله.

الرد على الرافضين للمنهج العلمى فى التفسير

إن حجج المعارضين للمنهج العلمى للتفسير التى أوردناها فى الفقرات السابقة هى كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلى:

(١) إنه لا حاجة بنا اليوم إلى الإسرائيليات فى تفسير آيات الكونيات؛ لأن الرصيد العلمى فى مختلف تلك المعارف قد بلغ اليوم شأواً لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم الإسرائيليات فى تفسيره من الأوائل قد ضل سواء السبيل، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة، ومشاهداته المتكررة فى شرح تلك الآيات لا بد أن يصل إلى فهم لها لم يكن من السهل الوصول إليه من قبل، وأن يجد فى ذلك من

صور الإعجاز ما لم يجده السابقون، تأكيداً لوصف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للقرآن بأنه: « لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد».

(٢) إنه لا تعارض ألبتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشادا إلهيا، ودستور عقيدة وعبادة، وأخلاقا ومعاملات، وكتاب تشريع سماوى يشمل نظاما كاملا للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التى وردت فى مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته فى إبداعه للخلق، وقدرته على إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد؛ وذلك لأن الإشارات تبقى بيانا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، فلا بد أن تكون حقا مطلقا؛ لأنه من أدرى بالخلقة من الخالق (سبحانه وتعالى)؟! ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة منذ القدم لكان لهم فى مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وثبات غير ملحق. فنحن ندرك اليوم - وفى ضوء ما تجمع لنا من معارف فى مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية - أن آيات الكونيات فى كتاب الله تتسم جميعها بالدقة المتناهية فى التعبير والشمول فى المعنى، والاطراد والثبات فى الدلالة، والسبق لكثير من الكشوف العلمية بعشرات المئات من السنين، وفى ذلك شهادة قاطعة لا يستطيع أن ينكرها جاحد بأن القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمى والبيانى فى القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز والدقة فى التعبير والإحكام فى الدلالة، والشمول فى المعنى ما يمكن الناس على اختلاف ثقافتهم وتباين مستويات إدراكهم، وتتابع أجيالهم وأزمانهم أن يدركوا لها من المعانى ما يتناسب وهذه الخلفيات كلها، بحيث تبقى المعانى المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضا فى تناسق عجيب وتكامل أعجب؛ لأنه تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندى من أروع صور الإعجاز فى كتاب الله، فالإجمال فى تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة، كل على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه هى بالقطع أمر فوق طاقة البشر وصورة من صور الإعجاز لم تتوافر ولا يمكن أن تتوافر لغير كلام الله الخالق،

ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهُمَّأ يزداد اتساعاً وعمقاً جيلاً بعد جيل، وهذا في حد ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهى عجائبه، ولا يبلى على كثرة الرد. كما وصفه المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى كل عصر وفى كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلاما بحد أدنى من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور فى التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله - كل فيما يخصه - ومحاولين فهمها فى ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لكتاب الله حتى تتحقق نبوءة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فى وصفه لكتاب الله أنه لا تنتهى عجائبه...

(٣) إن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم فى كل عصر، حتى لا يستيفوه فيملوه ويهملوه. وثبات القرآن الكريم - وهو من السمات البارزة له - لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، ولا يتوافر للإنسان منها فى عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور، تقدماً واطمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علماً - بصفة عامة - من الأمم السابقة، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية - بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة - دائمة التغير والتطور، بينما كلمات القرآن الكريم وحروفه ثابتة لا تتغير، وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز فى كتاب الله.

وعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآنى، وتطور الفهم البشرى لدلالاته - مع اتساع

دائرة المعرفة الإنسانية جيلا بعد جيل - فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض فى اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله، إلا إذا كان المفسر لا يأخذ بالأسباب، أو يسىء استخدام الوسائل فيفضل الطريق...!! ويظل اللفظ القرآنى ثابتا، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصرا بعد عصر...، وفى ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغير كافة كلام البشر، وأنه بالقطع بيان من الله...؛ ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضا على تدبر آياته، والعكوف على فهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالى العصور عليه، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وإذ يكرر التساؤل التقرىعى فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، ويؤكد ضرورة تدبر القرآن، وأنه (تعالى) قد جعله فى متناول عقل الإنسان، فيذكر ذلك أربع مرات فى سورة القمر؛ حيث يصدع التنزيل بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠].

والذكر هنا - كما يجمع المفسرون - يشمل التلاوة والتدبر معا، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع تبادل العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآنى ثابتا، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك - بالقطع - فيما لم يرد فى شرحه شىء من المأثور الموثق، وليس فى ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس - كما يدعى البعض - ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله، وهو الذى أنزله الله (تعالى) للبشر لكى يفهموه ويتعظوا بدروسه، وفهمه فى الوقت نفسه هو صورة من صور الإعجاز فى كتاب الله، لا ينكرها إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليس إلا نظريات وفروضنا، يبطل منها اليوم ما كان سائدا بالأمس، وربما يبطل فى الغد ما هو سائد اليوم، فهو أيضا قول ساذج؛ لأن هناك فروقا واضحة بين الفروض والنظريات من جهة، والقواعد والقوانين من

جهة أخرى، وهى مراحل متابعة فى منهج العلوم التجريبية الذى يبدأ بالفروض، ثم النظريات، وينتهى بالقواعد والقوانين. والفروض هى تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هى صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها. أما الحقائق الكونية فهى ما يثبت ثبوتاً قاطعاً فى علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهى جزء من الحكمة التى نحن أولى الناس بها. وكذلك القوانين العلمية فهى تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية فى الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهى كذلك جزء من الحكمة التى أمرنا بأن نجعلها ضالة المؤمن.

حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية الواردة فى القرآن الكريم إلا فى ضوء الحقائق العلمية المؤكدة من القوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمها فى فهم ذلك، وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم فى فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجاً فى ذلك العمل الذى يقومون به فى غيبة نص ثابت ماثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق فى فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً خالصاً بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وحدود القدرة، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة القاعدة أو القانون، وقد لا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة فى ذلك المجال بعينه أبداً. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها النظريات المفسرة لأصل الكون، وأصل الحياة، وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد محدود من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون فى يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير

لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى قانون قطعى، أو قاعدة ثابتة لذلك، فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالا بعيدا، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضْلِيلِينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، فى عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك من مثل قضايا الخلق: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان. وهى قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبدا بغير هداية ربانية، ولولا الثبات فى سنن الله التى تحكم الكون وما فيه لما تمكن الإنسان من اكتشافها...، ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقتهم، خاصة فى فهم كتاب الله، الذى أنزل لهم، ويسر ليذكرهم؛ لقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧- ٢٢- ٣٢- ٤٠].

ففى الوقت الذى يقرر القرآن الكريم فيه أن الله لم يشهد الناس خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده فى آيات أخر يأمرهم بالنظر فى كيفية بداية الخلق، وهى من أصعب قضايا العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية قاطبة؛ إذ يقول (عز من قائل):

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩- ٢٠].

مما يشير إلى أن بالأرض سجلا حافلا بالحقائق التى يمكن أن يستدل منها على كيفية الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة. والأمر فى الآية من الله (تعالى) إلى رسوله

الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير فى الأرض ، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول ، وهى قضية تقع من العلوم الكونية (البحثة والتطبيقية) فى الصميم ، إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عاجلها الإنسان.

وعلى ذلك فإنى أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولا ، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة ، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمى المنطقى المقبول ، حتى لو أدى التطور العلمى فى المستقبل إلى تغيير تلك النظرية ، أو ذلك الفرض ، أو تطويرهما ، أو تعديلهما ؛ لأن التفسير - كما سبق أن أشرت - يبقى اجتهادا بشريا خالصا من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية ، إن أصاب فيه المرء فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد. ويقتضى هذا الاجتهاد قابلا للزيادة والنقصان ، وللقصد والتعديل والتبديل.

الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله فى إطار محاولات البشر: إن فى كون القرآن الكريم بيانا من الله (تعالى) إلى الناس كافة ، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه - كل فى حقل تخصصه - على ضوء ما تجمع له من معارف بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة ، فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تأويل آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجا على القرآن بالمعارف المكتسبة ، ولا انتصارا له بها ، فالقرآن بالقطع فوق ذلك كله ؛ ولأن التأويل على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم فى إطار لم يكن متوفرا للناس من قبل ، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله ، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات ، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التى تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر فى مختلف جنبات الكون بمنهج علمى استقرائى دقيق ؛ وذلك لأن الله (تعالى) قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد يمكن حواس الإنسان التأمل لها ، والمتفكر فيها ، والمتدبر لتفاصيلها من إدراك أسرارها (على الرغم من محدودية قدرات تلك الحواس) ، ويعين عقله على فهمها (على الرغم من محدودية قدرات ذلك العقل) ، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التى يزخر بها

القرآن الكريم ، وبين علينا ربنا (تبارك وتعالى) - وهو صاحب الفضل والمنة - بهذا التسخير الذى هو من أعظم نعمه علينا نحن العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل فى الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع فى الكون، صغر أم كبير، أدلة مدونة فى صفحة الكون، وفى صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمى الاستقرائى الصحيح، فما من انفجار حدث فى صفحة الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهى مسجلة فى صخور القشرة الأرضية، وما من تغير فى تركيب الغلاف الغازى أو المائى للأرض إلا وهو مدون فى صخور الأرض، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير فى المناخ إلا وهو مدون كذلك فى صخور الأرض، وما من هبوط نيازك أو أشعة كونية على الأرض إلا وهو مسجل فى صخورها.

ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل فى الكون واستخلاص سنن الله فيه، وتوظيف تلك السنن فى عمارة الأرض، والقيام بواجب الاستخلاف فيها هى دعوة للناس فى كل زمان ومكان، وهى دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل انطلاقاً من الحقيقة الواقعة التى مؤداها: أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى - دوماً - مهيمناً عليها، محيطاً بها؛ لأنه كلام الله الخالق الذى أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذى هو أدرى بصنعبته من كل مَنْ هم سواء.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية الذى يتلأأ بين كلمات هذا البيان الربانى الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين، وحتى لو أخطأ المفسر فى فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم، فإن هذا الخطأ يعد على المفسر نفسه، ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً. والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطؤوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ؛ فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمّع لديهم من معارف؛ لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهما كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها فى حدود أطرها اللغوية وحدها.

موقف المعتدلين فى التفسير العلمى

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بالعدل، أى أنه دستور كامل للحياة فى طاعة خالق الكون والحياة.

ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد جاءت فى معرض التذكير بقدرته المطلقة، وبديع صنعه فى خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومنْ أعلم بالكون من خالقه...؟

من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حقاً، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه فى الكون، وثابتة فى دلالاتها - مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية - فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل:

﴿... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝﴾ [النساء: ٨٢].

ومن هنا أيضاً كان واجب علماء المسلمين فى مدارس تلك الآيات الكونية مستفيدين بكل أنواع المعارف المتاحة فى تفسيرها وإظهار جوانب الإعجاز بها، فى حجة واضحة ومنطق سوى وذلك تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودحضا لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة التى مؤداها أن القرآن كلام الله العزيز الرحمن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد تركت مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، فلولا أن الإرادة الإلهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهى دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذى يشد الإنسان إليه، ويشحذ جميع حواسه وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على

الأرض رتيبة كثيبة بائسة، جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير فى كل أمر من أموره، وفى كل لحظة من لحظات وجوده. هذا فضلا عن أن العقل البشرى عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه يحتاج فى فهمها إلى شىء من التدرج فى الكشف، وفى استخراج الأدلة، وفى إثباتها وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية فى كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دوما بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك، وتحدد وسائله، وتخص على التأمل فى الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهى... خلق الإنسان من علق... وهى حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف حقيقة المجاهر المكبرة، وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ [العلق: ١-٥].

ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك بما يقرره القرآن من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخداماتها فى التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتخدمها فى حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق (تبارك وتعالى) ذلك بقوله فى محكم كتابه:

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ [الإسراء: ٣٦].

كما يستدلون برفض القرآن للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، ومطالبته الإنسان دوما بتأسيس الأحكام على الدليل العقلى الذى لا يقبل النقص، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي فى دراسة الكون وما فيه، كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم، للعلم والعلماء - بمن فيهم من علماء الكونيات - فى العديد من آى الذكر الحكيم، نختار منها قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ [الزمر: ٩].

وقوله (عز من قائل):

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقِسْطِ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ إِنَّمَا نَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية؛ مما يؤكد أن

الآية تشمل علماء الكونيات، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۗ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا نَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨].

كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان في

- تشديد واضح - بالنظر في كل ما خلق الله، وهذه أوامره صريحة جلية، مختار منها

قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ... ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۗ ﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ [الذاريات: ٢٠- ٢١].

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۗ ﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ [الأنعام: ١٠١].

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

ويتنصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم بما ينعاه القرآن على الغافلين عن

التفكير فى آيات السماوات والأرض فى كثير من آياته التى منها قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقابا لهم على إهمالهم نعم الله التى أنعم بها عليهم، وذلك فى مثل قول الله (تعالى):

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية فى كتاب الله بربط القرآن دوما بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله (سبحانه وتعالى):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله (عز من قائل):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[غافر: ٥٧].

ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية فى كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم - فى استعراضه لأمر الكون - يتناول كليات الأشياء، تاركا التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه، فى الوقت نفسه ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة فى أشياء مثل الكم والكيف، وهما من أسس العلوم التجريبية؛ الكم الذى يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار وغيرها يتمثل فى كثير من الآيات القرآنية التى نختار منها قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿... قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله (عز من قائل):

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ...﴾ [المؤمنون: ١٨].

وبخصوص الكيف، بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها فى مواضع كثيرة، منها قول الله (تعالى):

﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

وقوله (عز من قائل):

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق: ٦].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم على أن لكل شىء فى هذا الكون فطرته السوية التى فطره الله عليها، والتى تخصه وتميزه، وهى قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمى التجريبي فى الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ فى ذلك قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ٢-٣].

وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل؛ لقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

وأنها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التى تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أى من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، وعلى أن الكون وما فيه خلق بالحق، ويطلب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالنزول ينطق بقول الله (تعالى):

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ۝﴾ [الروم: ٨].

وقوله (عز من قائل):

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۗ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ لِّأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ [الزمر: ٥].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّينِ وَالْحِسَابِ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ [يونس: ٥].

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنُعِيبَ ۝﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله، ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها ١١٤ سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التى هى صميم العلوم التجريبية من مثل خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، ورتق السماوات والأرض وفتحهما، وبدء السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفى الماء، واستعراض مراحل الجنين فى الإنسان، وغير ذلك كثير مما لا يوفيه فى هذا المقام حصر، ولكن تكفى الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۗ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ۗ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله (عز من قائل):

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وآيات الكتاب الحكيم فى كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة فى التعبير، والشمول فى المعنى والدلالة، وبالسبق الإخبارى بمقائىق لم يتيسر للإنسان إلمام بها إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز التى لم تتوافر لجيل من الأجيال من قبل. وسأفصل الحديث فى الإعجاز العلمى، وشرح الإشارات الكونية وتفسيرها فى كتاب الله فى هذا الكتاب إن شاء الله (تعالى).

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات) وإلى صور من نشأتها ومراحل تكونها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه الآيات حوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة؛ مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريباً. ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية مواقف متعددة، فمنهم المضيقون والموسعون والمعتدلون، فالمضيقون يرون أن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله (تعالى)، وإبداعه فى خلقه، وقدرته على إفناء الخلق وإعادة من جديد، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها فى ضوء من معطيات العلوم الحديثة وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما الموسعون فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمى، خاصة فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية، ومن ثم فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات فى كتاب الله، وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة فى مختلف مجالات تلك العلوم، وقد تميز ذلك بشىء من التكلف الذى أدى إلى رفض المنهج والوقوف فى وجهه.

أما المعتدلون فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد وردت فى معرض التذكير بقدره الله، وىديع صنععه، فإنها تبقى بيانا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهى كلها حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه فى الكون، ومع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق هذا الكون. كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية فى التعبير، والثبات فى الدلالة، والشمول فى المعنى؛ بحيث يدرك فيه كل جيل ما يتناسب ومستوياتهم الفكرية، وما وصلوا إليه من علوم عن الكون وما فيه، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئا منها بقرون طويلة، وهذا فى حد ذاته يمثل الإعجاز العلمى للقرآن الكريم الذى هو أحد أوجه الإعجاز العديدة فى كتاب الله، ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه لتثبيت إيمان المؤمنين، ودعوة الجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، فى زمن تحول فيه العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث فى أحد أركانها يتردد صدها فى بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم فى بوتقتها؛ فيخسرون بذلك الدنيا والآخرة. وطوق النجاة فى الحالتين الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذى يتجلى إعجازه العلمى فى عصر العلم الذى نعيشه.



﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا

كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿

[الكهف: ٥١]